تركة التاريخ

في نفوس الشعوب الضعيفة

لعبد الرحمن شكري

تختلف الاخلاق باختلاف الامم الى حدّ كبير وليس معنى هذا ان امة تخلو افرادها من صفة حميدة او ذميمة فكل الصفات حميدها او ذميمها في كل نفس وفي كل امة وانما تختلف مقادير تمكن الصفات من النفوس. والحكم على اخلاق نفس او امة انما يكون بحسب ما فيها من الصفة سواء كانت حميدة او ذميمة فاذا كانت الصفة ضعيفة لم تكن مما توسم او توصم به واذا كانت شديدة كانت من خصائصها. والتاريخ هو مجموع العوامل التي أثرت في نفوس الافراد والامم من عوامل جغرافية واجتماعية وغيرها وهو يدلنا على ما تتصف به النفوس وما يغلب عليها من الخصال وما لا يغلب عليها. فعند دراسة التاريخ لا بدّ من دراسة مؤثرات الجغرافية البشرية اذ لكل بيئة خصال واخلاق مرجعها الى طبيعتها فنرى البدو على خصال غير خصال الحضر ونرى سكان الجبال موسومين بخصال يرجع اثرها الى طبيعة ارضهم ومناخهم وحاصلاتهم. فالشجاعة والكرم والجد والصدق والثبات واضدادها يمكن ردها الى البيئات التي تثبت فيها كما يثبت النبات ويمكن تمييز البيئات تشأ فيها. ويستطاع معرفة مدى اثر البيئة في حياة القوم الاجتماعية ثم ان حياة القوم الاجتماعية هي مجموعة مؤثرات منها ما يزيد او ينقص من أثر المؤثرات الجغرافية. وقد ينتقل قوم من مكان الى مكان مغاير للاول فتختلف صفاتهم التي بمرور الازمان او قد يختلف بعضها وضوحاً وشدة ونباتاً او ضعفاً واضمحلالاً وقد تغلب على نفوس القوم صفات من مكانهم الجديد وهي قد كانت أقل وضوحاً في مكانهم القديم وقد يكتسبون في مكانهم الجديد انواعاً اخرى من الصفات والقوانين والشرائع وأنظمة الحكم لها آثار في الحياة الاجتماعية بعيدة المدى طويلة المراقبة على التاريخ تسمى في النفوس صفات القوة او صفات الضعف وهي وليدة المؤثرات الجغرافية الى حدّ كبير اذ تختلف النظم والشرائع والقوانين كاختلاف البيئات الجغرافية ولكن اختلاط تلك البيئات واتصال شعوبها يؤديان الى انتقال القوانين والنظم من مكان الى مكان على مرور الازمان الاّ ان انتقالها أسرع من انتقال الاخلاق والصفات من النفوس. فالنظم والقوانين تنتقل بالهجرة او الغزو او المصاهرة أو

التعلم او المحاكاة . وقد تترك المؤثرات الاجتماعية أثرها حتى بعد زوالها فتبقى الآثار أجيالاً في بعض الاحايين وقد يزول بعضها ويبقى البعض أو قد تبقى كلها معدّلة محوّرة

— واذا نظرت الى شعب درج في عصور التاريخ المختلفة على العزة والمذلة والقدرة وجدت فيه صفات تختلف عن صفات الشعب الذي درج في عصور التاريخ على ضد تلك الحالات . وقد تتبدل عزّة الشعب الاول وذلّه فتبقى فيه صفات العزّة عهداً طويلاً وقد تتبدل حالة الشعب الثاني وذلّه كما تزول شمائله القديمة فتبقى فيه صفات نشأت من العصور القديمة فتظهر في نفوس آحاده صفات وضيعة حتى ولو ظهر الشعب بمظهر العزة والنهوض . لان الحكم يكون بالصفات المتأصلة في النفوس ومظاهرها في حياة الناس ويكون الحكم على مثل هذا الشعب لا محالة برد هذه الصفات الى مسبباتها القديمة . ولا مناص من ذلك ولا يمكنه ان يخفيها عن احد او ان يرغم احداً على القول بذهابها الاّ اذا استطاع ان يتخلص منها ومحت عزيمته على ذلك واتخذ العدة للنجاة منها . اما ادعاء العزة والظهور بمظهرها والغضب من وصف ما ظهر منهُ مما يحسب انهُ قد نجى فلا يزيده الاّ تمادياً في صفاته القديمة واعتزازاً بها وهو يحسب ان انكارها خلاص منها كما يحسب الكاذب ان انكاره كذبه يجعلهُ صادقاً في حين تكون صفاته القديمة كالطابع او الختم لا مفرّ لهُ منهُ . وكل ما يمكن ان يقال فيه انهُ شعب تبدلت احواله فظنّ انهُ قد تخلص من آثارها او هو يغالط نفسه من العجز ويحسب ان في مغالطة النفس تخلصاً منها لعجزه عن الاخذ باسباب التخلص . وحسبانه هذا قد يكون اما من الجهل بشؤون الحياة والعالم والتاريخ وأما لانهُ يعتز بمخلفات وضيعة بعقها في الظاهر ولكنهُ يعتز بها لانها صارت نفسه ومن الذي لا يعتز بنفسه ولا يطيل بطلاء العزة ولا يتخذ من صفات الذلة قوةً وعضداً وهي قوة وعضد كما سنوضح الاّ انها قوة تمنع الضعيف من الفناء ولكنها لا تنهض به . فخصال الذلة انما نشأت كي تقي الذليل من شرّ سطوات القوي ولكنها لم تنشأ كي تنهض به الى مرتبة الثاني . وهذه الخصال هي الحسد والمكر والكذب والخداع والتعاون على الدسّ والغيبة والنميمة والرياء والبذاءة والقسوة والنفاق والغش . وسنوضح لماذا نشأت هذه الصفات في الاذلاّء كي تقيهم سطوات المقتدر واذا اجتمع في وسط من الاوساط أثر هذه الصفات التاريخي وأثرها الناشيء من ضرورتها بسبب ازدحام السكان وما يكون بسبب ازدحام السكان من التقاتل على الرزق كانت هذه الخصال في أشد حالاتها وأرذل درجاتها وأحط مميزاتها وظواهرها وقد نشأت هذه الخصال من سنة الاستعاضة في الطبيعة وهي سنة عامة في الطبيعة التي تعوض على المرء صفة بدل التي يفقدها فاذا فقد القدرة عوضته هذه الصفات كي يبدأ بها القدرة ويحمي نفسه . وانما مثلها مثل الجراثيم التي تنشأ في الجسم كي تحارب الجراثيم الاخرى الساطية عليه التي تريد ان تقتاله . والطبيعة تعوض الحيوان عما يفقده فالاعمى يعوض عن بصره خيالاً واحساساً لما حوله وكذلك النفوس المستضعفة تعوض على مرور الزمن من

المكر والكذب والحسد والنفاق والبذاءة ما تصون به اذا صانت وما تدرأ به القدرة وهذه صفات مشاهدة في الشعوب الضعيفة التي تعاني أثر العصور القديمة وقد ينتهي أجل الذلة التي سببت هذه الخصال فلا تزول بزوالها لان هذه الصفات تكون قد أصبحت طباعاً موروثة جيلاً بعد جيل وقد تكون منقطعة الصلة بالضرورة التي دعت اليها في أوساط الاذلاء عند ما كانت هذه الصفات قائمة مقام القدرة

أما القدرة نفسها فتشاهد مصحوبة بضد هذه الصفات لان المقتدر في غنى عنها فلا داعي الى الكذب كي يخفي به عيوبه وكي يحط به من قدر منافسيه في الحياة . اما المقتدر فني قدرته حماية تسهل عليه الاعتراف بالخطأ اذا أخطأ وفيها أنفة تأبى الا ان تنافس الاجادة بالاجادة وتأبى الا ان تناضل النقوة بالنقوة لا بالكذب والمكر والدس والنميمة والحسد واللؤم وغيرها من الصفات التي يلجأ اليها العاجز بحكم نفسه او بحكم ماضيه وماضي قومه او حاضره . فهذا الاحياء له الا بان يناضل بأمثال هذه الصفات وهذا أمر بدهي . ولا شك ان هذه الصفات هي درع العاجز وسلاحه في معترك الحياة وتكون عوضاً له من القدرة . وسنة الاستعاضة هذه في الطبيعة ليست مشاهدة في حياة الانسان فحسب بل في حياة الحيوان والنبات ايضاً وقد تنتهي الذلة التي سببتها فتبقى صفاتها وهذا هو ما يضلل الباحث اذ يرى عند غير الذليل كذباً وحسداً ومكراً وخداعاً ونميمةً وغيبةً وقسوةً وغشاً فيراها عند العزيز وعند المقتدر أو عند من يظهر بمظاهر العزة والقدرة فيضل عن سبب نشأتها وعن حقيقة استفحالها في نفوس الاذلاء وظهورها فيهم اكثر من ظهورها في نفوس الاعزة المقتدرين وتستفيض كتب القصص والتاريخ التي تدل على استفحال هذه الصفات في نفوس الارقاء ايام كان الرق شائعاً . فالكذب والغيبة والنميمة والدسائس صفات تقرأ لها نوادر كثيرة في حياة الارقاء وقد شوهدت غلبتها في الامم الذليلة بحكم ماضيها او حاضرها وفي الاوساط التي تعتريها الذلة بسبب التفاوت على الحياة الناشيء من كثرة السكان وازدحامهم . وشوهدت اضداد هذه الصفات في اضداد هذه البيئات واذا انتقل انسان من بيئة ماضيها اعتراه الذلة إلى بيئة أعز أحس أن آحاد البيئة الاعز أسرع إلى تصديق محدثهم من آحاد البيئة الاذل لان الرجل في الثانية تعود أن يكذب وأن يسمع الكذب فهو لا يسرع إلى تصديق محدثه إلا لهوى في النفس او اذا ادعى التصديق وهو مكذب . ومن أجل ذلك يدعي الرجل في البيئة الاذل أنه أذكى من الرجل في البيئة الاخرى لانه يفطن إلى خداع الخادع ويسيء الظن بالقول والعمل حتى ولو كانا صالحين . بينما قد ينخدع الرجل في البيئة الاعز لانه لا يفترض الكذب في الناس قدر افتراض الاول وهذا هو السبب الذي جعل آحاد البيئة التي تذيع فيها صفات الذلة يدّعون الذكاء النادر لانهم وقد يدّعون القدرة والعزة لان الكذب والحسد والنميمة والغيبة والمكر تقوّم القدرة في حياة العاجز بحسب سنة الاستعاضة في الطبيعة التي وصفناها. وقديماً قال مؤلف الخرافة القديمة عن آلهة الخرافات (عبثاً تحاول الآلهة ان تتغلب على قوة الجهل

والنباء) فجعل للجهل والنباء قوة وكأنه قد فطن الى سنة الاستعاضة الطبيعية التي وصفناها

وما يصدق في حياة الانسان يصدق في حياة الحيوان أيضاً لان الحاجة واحدة فالثعلب اضعف من الاسد وهو ايضاً أكثر مكراً ودهاء وكذباً. وبداءة اللسان انما نشأت في أول الامر لتحمي الضعيف من سطوات القوي وتشمل البداءة اللفتات الخفيفة والدعوات المفزعة وغير القول وكلها اشياء قد يتجنبها المقتدر ويزهد في ان يناضلها وهو لا يزهد في ان يناضل القدرة بالقدرة. ويعرف ذلك الاذل فيحتمي بها. ولا تزال البداءة أقرب إلى ألسنة الاذلاء والارقّاء وذوي العاهات. والمرأة اذا فقدت حياءها كانت أبرع في الشتائم من الرجل وأسرع اليها منه. ثم تدرّج الناس إلى استخدام البداءة في غير ذلة خصوصاً في الاوساط التي يشتد فيها التناحر على المعاش او على الظهور في الحياة ولكنها في اولها ناشئة من سنة الاستعاضة الطبيعية واجتماع هذه الصفات كلها واستفحالها في شعب قد يحرمه السعي لتكوين اضدادها من صفات القوة في نفسه اعتزازاً بصفات الذلة لما قد يظهر فيها من الذكاء الرخيص كما اوضحنا ولانها استعيض بها عن القدرة فظنّ انها قدرة وقوة وعلى قدر تمادي المجتمع في صفات الذلة هذه يكون بعده عن مراقي الرقي والنهوض مهما فاخر بالنهوض لان صفاته هي صفات التخاذل والاثرة والغش التي تحبط الاعمال العامة وتمنع من الثقة المتبادلة بين آحاده. ولا يفطن القوم الى ان صفات الذلة هذه وان كانت قد حالت بينهم وبين الفناء لا تصلح للنهوض فهي أداة بقاء لا أداة ارتقاء وهي إذا التبست عليه واختلطت بأضدادها كانت كما يختلط الامر على الانسان فلا يميز بين الوقاحة الناشئة من فقدان الحياء وبين الشجاعة المصحوبة بالحياء والاولى من صفات الاذلاء بالرغم من مظاهرها وهي اشد ما تكون في الرقيق اذا تحكم وفي المرأة اذا بذلت فاذا تدبرنا كل هذه الامور علمنا ان تركة التاريخ في النفوس كثيراً ما تكون تركة مثقلة بالديون

اذا نظرنا في تاريخ مصر القديمة ونفوشها التي تصف اخلاقها رأينا النقوش في اواخر الامبراطورية الحديثة تصف صفات الضعف التي ذكرناها وتندد بها وتلوم عليها واذا راجعنا تاريخ الدولة البيزنطية الاغريقية الرومانية رأينا فرقاً كبيراً بين الرومان في اول نشأتهم عند ما كانت صفات القوة النفسية ظاهرة موصوفة مأثورة عنهم مذكورة في كتب تاريخهم وبين الرومان والاغريق في اواخر عهدهم عند ما صاروا الى صفات الضعف النفسي من مكر وكذب وكيد وتحاسد وتخاذل وتنابذ وغيبة ونميمة وغش ونعني أن هذه الصفات صارت أوضح اثراً في حياتهم وتاريخهم وقد كانت ولا شك موجودة من قديم الزمن شأنها في كل زمن ومكان ولكنها نمت وكان نموها كي تكون كدرع يتقي بها الضعيف القوي شأن نموها دائماً في النظم الفاسدة والاوساط المختلة. على ان نمو هذه الصفات وتكاثرها كان له اثر كبير في زوال هذه الامم وفنائها فهذه الصفات المنحطة هي أداة بقاء الى حدٍّ ما ولكنها اذا تكاثرت أضعفت جسم الامة وأدت الى زوالها